الفصل الرابع

حين استقبلني بعد أيام في مكتبته كان من السرور في غاية . بدا وضاء المحيا شفت بشرته عن ذلك النور العجيب الذي يفتر على محياه افترار الزهر في آذار . هذا الإنسان الفريد لم يستطع الزمن أن ينال من روحه ، بل لقد بدا أن عمره قد زاد في جلو مرآة قلبه وتصفية معدنه .

قبلت يده وأنا أحدث نفسي بأن الشيخ يضمر أمراً . فما سبب هذا السرور البادي في العينين اللألاءتين كنجمتين في غسق الدجى ؟

ولقد عاد الشيخ إلى مجلسه ، ومد يده إلى طاولته ، فنظرت ، فإذا عليها جهاز تسجيل حديث يتألف من عدة قطع أعلاها بيك آب وضغط الشيخ زر المسجلة فانبعث من ثم صوت أم كلثوم .

يا إلهي ماذا أسمع ؟ أيعقل هذا ؟ الشيخ يسمع أم كلثوم ؟ الدهشة لم تكن مقصورة على ما للشيخ من عمر وما له من هيئة وهيبة ، لا . . لقد تذكرت بسرعة حادث وفاة ابن الشيخ ، وحسبت بسرعة كم مضى على الحادث من زمن ، ثم وجدتني أقول لنفسي : (غير معقول ، لقد مضى على وفاة الشاب أربعة أسابيع فقط) .

كان يتأملني ، وعيناه تقولان كلاماً بلغتهما . . ثم أوقف المسجلة ورفع

غطاءها وأخرج أسطوانة وضعها على الطاولة إلى جانب غلاف الأسطوانة ، وعلى الأسطوانة كانت صورة لأم كلثوم .

ظل ينظرني مبتسماً ثم قال :

ـ أنت مندهش . . أليس كذلك ؟

قلبت شفتي متبسماً دون أن أحر جواباً ، فنظر هو إلى الصورة قائلاً :

ـ كنا نتحدث عن الخواطر ، أليس كذلك ؟

هززت رأسي بالإيجاب فتابع :

ـ وقلنا المطاع هو محرك الخواطر وقائدها . وقال ابن عربي : يقال خاطر شيطاني وهو حديث رباني وقول إلهي لما أراده الحق قال له كن فكان فناجاه الاسم البعيد ، كما يتلقاه من الحديث الآلهي في الخاطر الملكي الاسم القريب ، كما يتلقاه من الحديث الإلهي في الخاطر النفسي الاسم المريد ، كما يتلقاه من الحديث الآلهي في الخاطر الرباني الاسم الحفيظ ، فهذه الخواطر كلها من الحديث الإلهي الذي لا يشعر به إلا رجال الله .

إذن نحن هنا بصدد الأسماء التي تحرك نفس الإنسان وقال الجيلي : الخلق حجابك عن نفسك ، ونفسك حجابك عند ربك . ما دمت ترى الخلق لا ترى نفسك ، وما دمت ترى نفسك لا ترى ربك . وقال ابن عربي : وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر . . ففي النفس سر الله الأعظم .

استمعته وبصري شاخص . لقد ظل موضوع المسجلة والاسطوانة وصورة أم كلثوم هو المسيطر علي . . وتساءلت في سري عما إذا أمكن أن تكون ثم علاقة بين ما كان فيه الشيخ من شاغل وبين الحديث الذي انتقل إليه من بعد . كنت أفكر في هذا لما نظر الشيخ إلى الاسطوانة وسألني :

ـ أسمعت أم كلثوم ؟

ابتسمت . .

ـ صوت جميل . .

هززت رأسي . .

ـ كل ما خلق الله جميل وليس في الامكان أبدع مما كان .

الشيخ يتحدث مثل أهل الفن . . مثل أهل الطرب . . أيعقل هذا ؟

وفجأة تغير وجه الشيخ . . جلله طابع من الجد فجأة ثم إذا به يقول بصوت تبدلت نبرته . . لقد عاد إلى صوته نبرة المحاضر في قاعة جامعية .

ـ في الحقيقة الصوت صورة .

يا إلهي ، بدأ الشيخ يتحدث بلغة الألغاز . وتنبهت محاولاً اللحاق بهذا الطائر الأسطوري الذي لا يكاد يحط على صخرة في أعلى جبل حتى يبسط جناحيه ويحركهما محلقاً كالصاروخ إلى أعالي السماء .

وتابع هو يسألني :

ـ أليست أم كلثوم مطربة ؟

ـ أجل .

ـ وهل رأيت أنت الطرب أم المطربة ؟

الشيخ يتحدث عن الصور إذن ، أو عن مُثل أفلاطون ، وأجبت :

ـ طبعاً رأيت المطربة .

ـ ومَنْ غنى في المطربة الذات الناطقة .

ـ طبعاً .

ـ إذن صوت المطربة هو صوت الذات الناطقة التي هي الإنسان .

ـ أجل .

ـ ومن هذا نستنتج أن الصوت صورة .

قلت بحيرة :

ـ صورة ماذا ؟

ـ صورة النفس .

ـ ولكن الفلاسفة قالوا إن النفس صورة الجسد .

ـ حسناً ، ليكن صوت الإنسان إذاً هو صورته لأنه حديث النفس ، والنفس كما قلت صورة .

وسكت الشيخ قليلاً ثم استطرد قائلاً :

ـ وهل سمعت عن الشجاعة ؟

ـ طبعاً .

ـ وهل رأيتها ؟

ـ لا .

ـ رأيت الشجعان فقط .

ـ طبعاً .

ـ وصفة الشجاعة هي التي جعلت الشجاع شجاعاً .

ـ بالطبع .

ـ ولولا الشجاعة ما كان الشجاع شجاعاً .

ـ لا .

ـ والشجاعة صفة كل الشجعان .

ـ أي نعم .

ـ هي التي جعلتهم جميعاً شجعان .

ـ هذا صحيح .

ـ إذن صفة الشجاعة كلية جعلت الشجعان الجزئيين شجعاناً ، هي واحدة وهم كثر .

ـ أي نعم .

ـ والشجاعة ثابتة أبدية والشجعان متغيرون متعاقبون .

ـ صحيح .

ـ والشجاعة حروف .

بدا في عيني تساؤ ل ، فتابع مفسراً :

ـ كلمة الشجاعة مؤلفة من حروف .

ـ بالطبع .

ـ والحروف أرقام .

ـ كيف ؟

ـ أليست الأبجدية أرقاماً . . أليس لها عدد ؟

ـ بالطبع .

ـ الألف مثلاً هي الرقم واحد .

ـ أجل .

ـ والألف وحدها لا تشكل شيئاً ، لا تعبر عن شيء . . إنها مجرد حرف .

ـ أي نعم .

ـ وبانضمام الباء إليها ثم الثاء ثم تظهر الكليات مثل الشجاعة والكرم والجمال وغير ذلك .

ـ بالطبع .

ـ هل قرأت عن الفيثاغوريين ؟

ـ أجل .

ـ جعلوا العدد فكراً ، الفكر القريب من المحسوس ، ولهذا كانت محاولة إدراك الكون على أنه عدد أول خطوة نحو عالم العقل أنت تقول قلم ، وقولك هذا قنطرة من عالم الحس إلى عالم ما فوق الحس . ولقد قرأت عن أفلاطون أنه جعل في أواخر حياته الكليات أعداداً .

قلت :

ـ أجل قال بوجود أعداد هي أصل الكليات ، وفرق بين هذه الأعداد والأعداد الحسابية ، وسمى هذه أعداداً مثالية .

ـ وهل استوعبت هذه النظرية ؟

ـ حاولت ، ولكن الشارحين مجمعون على أن هذه النظرية صعبة وغامضة . فالحديث عن الكليات مفهوم ، أما أن تكون هذه الكليات أعداداً ، أعداداً مجردة أو أعداداً مثالية فما معنى هذا ؟

ـ إسمع هذه الرؤ يا التي رأيتها . رأيت رجلاً يجلس على رأس صف من الرجال ، وجعل الرجل يصفق . . ثم قال : واحد ، ثم صفق صفقتين وقال : اثنان ، فقال من معه : اثنان . . ثم صفق ثلاثاً ، وصفق من معه وقالوا : ثلاثة : وهكذا إلى أن صفق الرجل عشر صفقات . وانضممت أنا إلى ما كان يحدث فصفقت عشر صفقات وحدي . فما تأويل هذه الرؤ يا ؟

فكرت في الرجل والتصفيق وفي الواحد والعشرة والصفقات العشرة ثم قلت :

ـ هناك نظرية عن عقول الأفلاك التي تفيض عن الواحد للفارابي وهذه العقول هي أسس لوجود وبها يتم إمداد الوجود بالوجود والمحافظة عليه ، فهل لهذا علاقة بالرؤ يا يا سيدي ؟

جعل يساقط حب سبحته حبة حبة ثم قال :

ـ الرجل الأول العقل الأول ، ودل على كونه عقلاً ظهوره في صورة ، والصور التسعة الموجودة إلى جانبه هي موجودات شريفة أولى قائمة في وجود محض غير متعين . أما التصفيق فإشارة إلى العدد . والعدد واحد مبدأ الأعداد ، والعدد تجريد كما بينا ، فالواحد هو المجرد الأول ولهذا كان العقل الأول ، وكانت الصور التسعة قائمة بالواحد باعتبارها امتداداً للنور قبل التعين . فالصور العشرة هي شريفة إذن ، ويقول سقراط : ليس التسعة بأكمل من الواحد ، أي العشرة هي عقد من العدد ، وهي أكثر من تسعة وإنما يكمل التسعة فيكون عشرة بالواحد . والعقد أساس الظهور . يقال العقد للعشرين والثلاثين والأربعين حتى المائة . فكل عقدة أساسها العشرة .

ونجد في اللغة مصداقاً لذلك . فعقد الحبل جعل فيه عقدة ، والعقدة كتلة فهي كرة بينما الحبل خط ، والخط نور ، فالكرة تكثف النور . وعَقَد الثمر انضمت أجزاءُ زهره ، وعقد السائل غلظ ، ومنه ما يقال بالعامية معقود ، وعقد البناء بالجص ألزقه . فالعشرة أساس تركيب معادلات العناصر ، ولولاها ما انتظمت العناصر وظهرت كما تنضم أجزاء زهر ليعقد الثمر .

وفي الحساب تجد أن الأرقام العشرة أساس كل الأرقام كما في النظام العشري . من الواحد كانت الأعداد ، ومن الأثنين والثلاثة والأربعة حتى العشرة انتشأت الأرقام إلى ما لا نهاية . لاحظ أننا عندما نصل إلى العدد عشرين نستخدم العدد اثنين ونضع بجانبه صفراً فنعبر عن العشرين ، وعندما نصل إلى الثلاثين نستخدم الرقم ثلاثة مع وضع الصفر بجانبه فنعبر عن الثلاثين ، وهكذا حتى نستخدم الأرقام التسعة . هذا في العشرات ، أما في المئات فنعود إلى استخدام العدد واحد ونضع بجانبه صفرين فنعبر عن المائة ، ثم نستخدم العدد اثنين ونضع أمامه صفرين فنعبر عن مائتين وهكذا حتى الألف . . ثم ننتقل إلى الألوف مستخدمين الأرقام الأولى نفسها بوضعها بالتتابع في خانة الألوف ثم في خانة عشرات الألوف . وتبدو الطريقة تجريدية لا علاقة لها بالتعينات والمحسوسات ، ولكن لا تنسى أننا قلنا إن العدد واحد نفسه كان أول تجريد للواقع والمحسوس ، وإنه قنطرة بين المحسوس والمعقول .

أما تأويل التصفيق فهو الحركة أو الفعل ، والأول مبدأ الحركة ، والصفقات العشر مبادىء الحركة الأولى . وتصفيقي أنا ، بعد أن صفق الواحد إلى العشرة ، فهو بدء انتشار الحركة في العالم العنصري فأنا ممثل العالم العنصري الذي هو عالم واحد . فكل ما تراه من حركة ونشاط في العالم العنصري أساسه واحد ومصدره واحد ومقومه واحد وهذا الواحد هو العقل الأول أو النور اللطيف . فأنت ترى أن العدد الذي تكثر حتى العشرة قد عاد إلى الواحد ، وهذا الواحد هو العالم العنصري . وبمقارنة هذا الواحد بالواحد الأولي يتبين لنا أن العالم المعقول الممثل في صورة هي جامعة لكل الصور ، وهي ماهية كل الماهيات ، يماثله بالمقابل عالم محسوس . ولئن تكثر العالم المعقول بانبثاق الصور منه فكذلك فإن العالم المحسوس قد تكثر بانبثاق الصور التي صارت عياناً ، أو ظهرت ظهوراً عيانياً على المستوى المادي .

ونحن حين نتكلم عن الواحد الذي هو العالم المحسوس المقابل للعالم المعقول فإنما نتحدث بالطبع عن النفس الكلية التي تحوي هذه المقابلة وهذه المناظرة بين العالمين . وحديثنا عن النفس الكلية شمل الظهور العياني على

مختلف المستويات بما في ذلك النفس العاقلة الإنسانية التي هي ظهور أيضاً من ظهورات العالم المعقول .

فالنفوس الجزئية أصلها واحد ، وهذا الواحد هو النفس الكلية التي هي بدورها صورة جامعة للعالم المعقول . والنفس الجزئية الفردية بعد هذا الاعتبار تكون بدورها صورة من صور العالم المعقول ولهذا نقول إن النفس صورة ، وهي تابعة للعالم المعقول باعتبار كونها مفكرة وعاقلة للمعقول . فالنفس الفردية إذن هي تعين العالم المعقول الذي ما كان من دونها ليتعين .

النفس من جهة تعقلها شفافة بسيطة نورانية وهي قبل هذا كله وحدة لا يمكن أن تتجزأ وهي موجودة في الجسم بحكم السكن والفعل في هذا المسكن . وينفعل الجسم عنها بفعل قواها فهو مركبة لها وخادم . وتأتي وحدة النفس من جهة تعقلها التابع لعالم العقل الكلي ، ومن هنا كان وجود النفوس الجزئية كتكثر وجود غير موجود إلا على أساس النور العاقل الذي يمدها بالحياة والقوى والإمكانات .

وأخذ الشيخ نفساً عميقاً ثم استطرد قائلاً :

ـ إليك هذه الرؤ يا الثانية . رأيتني في غرفة أمامي إمرأة اسمها مريم ، ثم مددت يدي إلى مخطوط قديم كتبته ففتحته فقرأت فإذا بي قد كتبت فيما كتبت عدداً هو مائتان واثنان وعشرون وعدداً آخر هو ستمائة وست وستون . لقد كتبت ذلك بالأرقام أي ٢٢٢ و ٦٦٦ . وقلت لنفسي هذا أسلوب ركيك وفي الكتابة الأدبية لا تذكر الأرقام بل الحروف ، فالأولى أن أعيد كتابة العددين بالحروف .. فما تعبير هذه الرؤ يا ؟

الشيخ يكاد يفقدني عقلي . إنه يكلفني دائماً ما لا أستطيع صحيح أنني مثقف فلسفياً ولكنني لست فيلسوفاً ، وإذا كان النقاد والشراح وجدوا صعوبة في فهم نظرية الأعداد فهل أكون أنا القادر على ذلك ؟

لاحظ هو حيرتي فقال :

ـ لاحظ أن العدد مكتوب في صفحة .

ـ أجل .
ـ ولاحظ الصلة بين العدد والحروف التي يكتب بها العدد .
ـ أي نعم .
ـ الرؤ يا تشير إذن إلى أن للحروف صلة بالأعداد .
ـ أجل .
ـ ومن الحروف تشكل الكلمات .
ـ بالطبع .
ـ ومن الكلمات يعبر عن الكليات . والكلمات تعبر عن قصة في كتاب . والآن لاحظ أنني كتبت العدد بغير حروف في صفحة والصفحة هي تعبير الوجود .

يا إلهي وماذا بعد . . وتابع هو :

ـ إذن كل ما يحدث في الوجود ، وما يحدث في الوجود قصة عبر عنها بالكلمات التي هي حروف والأصح أن يعبر عنها بلغة الأعداد .

قلت شاعراً بضيق :

ـ لم أفهم عنك يا سيدي .

ـ لقد رأيت في الرؤ يا أن الرجل الذي رقمه واحد صفق صفقة وقال واحد .

ـ صحيح .
ـ وأعاد الرجل الفعل حتى العشرة ، وكان من معه يفعل مثل فعله .

ـ صحيح .
ـ والتصفيق حركة وصوت ، هو فعل .
ـ أي نعم .
ـ والفعل يدل على صفة كالكريم يدل فعله على صفة الكرم .

ـ صحيح .
ـ والكرم حروف .

وكدت أصيح في الشيخ : وبعد ، وبعد ؟

ـ وقلنا إن حرف الألف لا يدل على شيء ولكن بانضمام الحروف إليه تبرز الصفات .

وانتظر قليلاً ثم سألني :

ـ والآن هل تعلم لماذا حذف حرف الألف من بسم الله .

فاجأني السؤال ، فاجأني بالفعل. سبب المفاجأة أنني لم أكن قد لاحظت هذه الملاحظة من قبل . ومضى هو قائلاً :

ـ كان ينبغي أن تكتب بسم باسم ، أليس كذلك ؟

ـ هذا صحيح .

ـ فلماذا حذفت ؟

فكرت ثم أجبت :

ـ لا أدري يا سيدي .

ـ ألست ترى أن الألف لم تحذف إلا من كلمة بسم فقط ؟

ـ أي نعم .

ـ والاسم اسم الله .

ـ طبعاً .

ـ والمجموع أسماء ، أسماء الله الحسنى .

ـ أجل .

ـ ولقد أحصي عددها في كتاب الله فبلغت تسعة وتسعين .

ـ صحيح .

ـ أي أننا انتقلنا من الأسماء إلى العدد .

حاولت أن أستوعب ما يقول فلم أستطع ، لم استطع ، وقلت معلناً عجزي :

ـ ما زلت لا أرى وجه صلة بين الأعداد والحروف يا سيدي .

ـ يا بني ، في مجال العدد الواحد أسسّ الكثير ، بمعنى دخول الواحد في

الكثير كتركيب عددي ، وهو تداخل اسمي ، بمعنى أن الاسم شارك في التعدد . أما في مجال الصفة الخالصة فلقد ظل واحداً ، ومع هذا فالاسم الظاهر في كثير اسم لواحد ، وكذلك الأسماء كلها . وبَيّن أن الواحد ههنا متعدد وهو في الوقت نفسه واحد .

قلت :

ـ ما تزال قضية الجمع بين الواحد والكثرة تشغل بال الفلاسفة ، ويقال إن أحداً لم يستطع حلها فهل في وسع الفلسفة الصوفية أن تفعل ذلك ؟

تفكر قليلاً ثم قال :

ـ المشكلة أننا إن استعملنا اللغة الفلسفية ضاقت العبارة ، وحصرنا كما حصر من قبلنا فلم يبق أمامنا إلا لغة الكناية والتشابيه وهذه الوسيلة أيضاً كانت مجال نقد لنا من كثير من الباحثين . وأنا شخصياً لا أجد إلا لغة التشبيه . فاللغة أصلاً تعبير عن محسوس تجرّد ، فهي تجريد للمحسوس ، فهي صدور من تحت إلى فوق . . أما الذوق فهو على العكس تنزيل ، أي هبوط من تجريد إلى مثال إلى محسوس . فالذوق لا تسعه العبارة إذن وقد أشير إلى هذا العجز في الفلسفة .

والمثل الذي أضربه هو أن الماء واحد والآنية متعددة فلئن أفرغ الماء في الأواني تفرق وهو مع التفرق ماء . ولئن أفرغت الأواني من الماء عاد الماء ماء علماً أنه كان ماء وظل ماء . فالآنية استيعاب فقط . فالتكثر للظهور ، والظهور كشفاً ليس تكثراً بل توزعاً مع الاحتفاظ بالوحدة . من هنا لم يجد الفلاسفة والصوفية غير لغة الأعداد للتعبير عن الوحدة والكثرة .

ونهض ومضى إلى النافذة حيث كانت أشعة الشمس تتدفق منها مرتمية على الطاولة . والتفت وأشار إلي بأن أقترب فلما فعلت نظر عبر النافذة وسألني :

ـ أترى الشمس ؟

ـ طبعاً .

ـ أترى أشعتها ؟

ـ أجل .

ـ هل بوسعك أن تلمس أشعتها ؟

ـ بالطبع لا .

ـ هل الشعاع هو الشمس ؟

ـ لا .

ـ هل الشمس هي الشعاع ؟

ـ لا ، هو صادر عنها .

ـ قل الشمس تشعه . وهل يمكن فصل الشعاع عن الشمس ؟

ـ لا .

ـ هل الشعاع يفارق الشمس ؟

ـ لا .

ـ هل دخل الشعاع الغرفة ؟

ـ أجل .

ـ هل تحتويه الغرفة ؟ أعني هل بوسع الغرفة أن تحبسه ؟

ـ طبعاً لا .

ـ والآن كم في هذه المدينة من بيوت ؟

ـ كثير .

ـ وكم في البيوت من نوافذ ؟

ـ كثير .

ـ وأشعة الشمس تتدفق من النوافذ .

ـ أجل .

ـ لقد رأيت ذات ليلة رؤيا كنت فيها أقف أمام كوى ، كوى كثيرة . وقد كتب في كل منها الكثير من الأسماء مثل العليم والحكيم والكريم والمتكبر والمهيمن والجبار . . ولقد رأيت فوق كوة التي كتب فيها اسم العليم صورة شيخ جليل ، وسمعت صوتاً يقول إن الشيخ هو الامام الغزالي ، فانتبهت من نومي

والقشعريرة تهزني هزاً . والآن هل فهمت ما معنى النوافذ التي تتدفق منها الشمس ؟

ـ أردت بها الأسماء يا سيدي أو الكليات .

ـ وهذه الأسماء لها عدد .

ـ أجل .

ـ وهي حروف كالعليم والغني والقوي .

ـ أجل .

ـ حسناً ، الشمس هي الواحد ، والأشعة المنطلقة عنها النور المحمدي ذو الجهات وهو واحد عن واحد ، والانتشار يعني الكثرة . فمن تركيب العدد نشأ الكثير . كل عدد أصله الواحد ، وكل عدد مضاعفات الواحد ، ولولا الواحد ما كان لعدد ، أي عدد أن يوجد . والنوافذ أسماء كليات ، وهي عدد ، أي مضاعفات الواحد وهي ترى أسماء ، والأسماء حروف فهل أدركت الآن وجه الصلة بين الحروف والأعداد ؟

حدقت إلى النافذة وإلى أشعة الشمس كما لو كنت أقف على شفير الشاطىء أتأمل البحر الوسيع . . ما قاله الشيخ كان غامضاً بعض الشيء بل إنني شعرت أن في قوله مزيجاً من الغموض والوضوح . كنت مثل تلميذ شرح الأستاذ له مسألة صعبة فجعل يبذل ما في وسعه لاستيعابها . . ثم قلت :

ـ مثال الشمس والأشعة ضربه أفلوطين للفيض عن الواحد .

ـ هذا صحيح .

ـ وظلت الفلسفة رغم ذلك عاجزة عن ردم الهوة الموجودة بين الواحد والكثرة .

ابتسم . . يا إلهي كم تبدو ابتسامته هادئة وهنيئة طفلية ساحرة وسألني :

ـ هل استوعبت قضية الصلة بين الأعداد والحروف ؟

استحييت من أن أقول لا فأجبت :

ـ أجل .

ـ لا ، أنت لم تستوعبها .

ـ قلبت كفي حيرة وقلت :

ـ الحق أقول إني لم أستوعبها كما يجب .

أطلق آهة ، وظهر في عينيه معنى عميق وقال :

تحدى سبحانه عباده بالحروف التي بدأ بها بعض السور مثل كهعيص ومثل ياء سين . ولقد وقف المفسرون حيارى أمام هذه الحروف، وصرح أكثرهم بأن لا يعلم تفسيرها إلا الله . وقد أدلى ابن عربي بدلوه في هذا المجال . أما شيخ الإشراق السهروردي فكان له في هذا العلم باع ، وسيد من انبرى لهذه المسألة الإلهية العظيمة ابن سبعين رحمه الله وله فيها أقوال وشروحات ما تزال موضع دراسة ومناقشة حتى الآن .

ونظر إلي من ثم نظرة عميقة وتابع قائلاً :

ـ لو استوعبت الصلة بين الأعداد والحروف لوجدت الواحد في كل كثرة .

ـ كيف ؟

ـ لأن كل كثرة تأخذ من الواحد .

ـ تأخذ ؟

ـ أجل تأخذ . لقد قربت إليك هذه العلاقة بكل مثل ممكن ألست ترى أنني أدور وأناور وأسدد إلى الهدف وأرمي محاولاً إيصالك إلى الاسم الأعظم .

ـ وما الاسم الأعظم ؟

ـ الاسم الأعظم الألف المحذوفة من بسم الله . قال سبحانه : ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ ، إذن كل نفس ملهمة من قبل الواحد ، إذن النفوس الكثيرة ملهمة من قبل واحد . ما ينطق ناطق إلا بعد تفكير ، وما يفكر مفكر إلا وهو يستمع لإلهام ، وإذا كان الملهم هو الواحد فأنت ترى أن الكثرة تأخذ كلها من الواحد وهي صوت الواحد . هل فهمت الآن لماذا حذفت

الألف من بسم الله الألف هي الواحد ، وهي الإلهام ، وهي أصل الأسماء بل هي الأسماء .

ـ وما رأيك يا سيدي بمثل أفلاطون ؟ لقد جعل لها وجوداً فعلياً وفارقاً قائماً بذاته .

ـ هذا شرك يا بني .

ـ شرك ؟

ـ طبعاً شرك ، فلا وجود لشيء إلا بالله .

ـ ولكنك وافقت على وجود موجودات شريفة أولى وقلت رأيت منها في الرؤ يا عشرة .

ـ قلت لك إنها موجودة صفاً بعد الواحد .

ـ هذا صحيح .

ـ ثم إن أفلاطون يقول إن الحصان المحسوس مخلوق وفق الحصان المثال .

ـ أجل هذا ما يقوله .

ـ هذا يعني القول بضرورة الاحتذاء بمثال والحقيقة أن أفلاطون لما أعمل فكره وتأمل وتفكر في الخلق قال إنه لا بد أن يكون لكل ظاهر باطن وإن الباطن أصل الظاهر . كل الأحصنة مخلوقة وفق نموذج ، إذن لا بد لهذا النموذج من أن يكون ذا وجود حقيقي أبدي أصيل . هذه هي النتيجة التي وصل إليها أفلاطون بعد التأمل العميق إن موقف أفلاطون يشبه إلى حد ما موقف المعتزلة الذين أوجبوا على الله كذا وكذا ، ونادوا بحرية الإرادة ، فرد عليهم الإمام الغزالي قائلاً إنه لا يتوجب على الله شيء ، فهو المليك المطلق السلطان . الله يخلق الحصان لا وفق صورة ، أي أنه لا يتقيد بصورة ، فالخلق وفق صورة تقييد ، والله بديع يخلق على غير مثال والمثل التي وصل إليها أفلاطون عن طريق النظر والتجريد موجودة ولكن في الله ، كما أن الأسماء المكتوبة في الكون مشعه عن الشمس وموجودة بالشمس ، هل فهمت الآن ؟ هززت رأسي بالإيجاب وشعور

عجيب يأخذني بقوة . . كأنني انتقلت من عالم إلى عالم بل من فلك إلى فلك . . بل أن الشعور بلغ حداً أحسست معه أنني فارقت عالم الحس وغشيت عوالم ما بعد الحس ، ما بعد المادة .

المعقول والمحسوس . الشيخ ينقلني بين العالمين كما لو أنه يجعلني أسبح في الفضاء بغير مركبة . إنه يجعلني أطير بجناحين من شعاع . كلامه كله شعاع . يأخذني ويجعلني أماشيه خطوة خطوة فأفهم عنه ما عجزت الفلسفة كلها عن أن تجعلني أفهم . فما هذا الوسع في هذا الإنسان ؟ وما هذه القدرة على التعليم والتبسيط ؟ بقدر ما كان كلامه غامضاً معقداً بقدر ما كان غاية في البساطة . أعجب ما في الأمر أنني كنت أشعر في نفس اللحظة التي أستمعه فيها بشعورين متناقضين ، شعور بأنني أفهم ما يقوله تماماً وأهضمه بسهولة وشعور آخر بأنني لا أدرك شيئاً في الوقت ذاته لأنني عاجز عن احتواء كلامه كما لو أنني كنت ساقية انصب فيها بحر من البحور . وبقد ما كنت أقترب من آفاق الشيخ بقدر ما كنت أبتعد عنها .

كان أمامي وكأنه صار بدوره هالة . . وجهه الوضيء الشفاف وعيناه المتألقتان وفيهما نظرة شعت فيها اللانهاية ، وابتسامته التي يعجز الوصف عن الإحاطة بها ، فهي مزيج من الرقة واللطف والثقة أيضاً ، الثقة اللامتناهية بأن صاحبها بلغ الحقيقة وعرف الحقيقة وعبر عن الحقيقة .

لو كنت فناناً لرسمت لوجه الشيخ لوحة ، ولخلدته . استغفر الله . ما أعنيه أن وجهاً كهذا هو الذي سيجعل لوحتي خالدة كما فعلت الموناليزا بدافنتشي . أمثال هؤلاء نجوم في السماء تتجه إليها الأنظار وتتعلق وتغرق . ترى كم ضيعت نجوم السماء من شعراء وأدباء وفنانين ومفكرين وفلاسفة . ألم يقل (كانط) إن النجوم كانت بالنسبة إليه أحد دليلين على وجود الله وإن ضميره الذي في داخله هو دليله الآخر ؟ حضور الشيخ له هذا التأثير ، له تأثير النظر في النجوم .